الباب السادس عشر

فيمن طفّل من الأشراف والأكابر ، وأهل العلم والأدب

- عبد الله بن جعفر .
- ذو الرّمة .
- رقبة بن مصقلة .
- حكم الوادى المغنى .
- إبراهيم بن المهدى .
- إسحق بن إبراهيم .
- مخارق المغنى .

الباب السادس عشر

[فيمن طفل من الأشراف والأكابر ، وأهل العلم والأدب]

ومما نقل عن بعضهم قيل :

مر عبد الله بن جعفر[1] ، ومعه عدةٌ من أصحابه بمنزل رجل قد أعرس ، وإذا مغنية تقول :

قلْ لكرامٍ ببابِنا يَلجِوا ما فى التصابى على الفتى حرج

فقال عبد الله لأصحابه : ـ لجُوا ؛ فقد أذن لنا القوم ! فنزل ونزلوا ؛ فلما رآه صاحب المنزل تلقاه وأجلسه على الفرش ، فقال للرجل :

كم أنفقت على وليمتك ؟

قال : مائتى دينار !

قال : وكم مَهرْت امرأتك ؟

قال : كذا ، وكذا ؛ فأمر له بمائتى دينار ، ومهر امرأته ، وبمائة دينار بعد ذلك معونة ، واعتذر إليه ، وانصرف[3] !

---

(١) عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، يقال : إنه لم يكن بالإسلام أسخى منه . قال ابن حبان : كان يقال له : قطب السخاء ! وأخباره فى الكرم كثيرة شهيرة كما جاء فى الإصابة . وقال ابن أبى الدنيا : حدثنى ابن أخى الأصمعى ، حدثنى عمى ، حدثنى خلف الأحمر قال : قال الشماخ بن ضرار يمدح عبد الله بن جعفر :

إنك يابن جعفر نعم الفتى ونعم مأوى طارق إذا أتى
وربّ ضيف طرق الحىّ سُرى صادف زاداً وحديثاً ما اشتهى

[ا هـ . الإصابة]

يلجوا : من الولوج وهو الدخول .

والتصابى : تكلف الصّبا ، والميل إلى اللهو .

(٢) لجوا : أمر للجماعة من «ولج» ؛ أى ادخلوا .

(٣) ولا أرى فيما فعله تطفيلا ، بل هل هو عمل كبير يقوم به كرام النفوس ، فقد أسهم بماله ، واعتذر ، وانصرف !

هل كان ذو الرّمة طفيليا ؟

وقال الكندى : سمعت أبا بكر بن عياش يقول : حدثنى من رأى « ذا الرّمة » طفيليا يأتى العرسان[1] !

زكـريا بن منظـور :

وقال آخر : سمعت العباس بن محمدالدورى يقول :

زكريا بن منظور كان طفيليا[2] .

رَقَبَـة بن مصقـلة[3]

وقال القحذمى : كان رَقبة يقعد فى المسجد ، فإذا أمسى ، بعث جلساؤه من جيران المسجد ، فيأتى كل رجل منهم من منزله بطُرفة[4]فيأكل ثم يقول : ليت الليل كان سرمداً[5] إلى يوم القيامة !

صـريع الفـالوذج :

وقال الهيثم بن عدى :

أتى رَقبة بن مَصقلة العبدىّ مِسْعر بن كدام ، فاستلقى على ظهره ، فقال : مالك ياأبا عبد الله ؟

---

(١) هو غيلان بن عقبة صاحب ميّة وخرقاء نشأ فى بيت كله شعراء ، وكان هواه مع الفرزدق على جرير ، وعلى شعره مِسحة البادية . توفى سنة ١١٧ هـ . وسمى ذا الرمة ، لأنه ذكر كلمة الرّمة وهى بقية الحَبْل فى شعره .

(٢) زكريا بن منظور . هو أبو يحيى القرظى القاضى . وقال ابن معين : وليس به بأس ، وإنما كان شىء فيه زعموا أنه كان طفيليا .

(٣) رقبة بن مصقلة بن عبد الله الكوفى من المحدثين الثقات ، والزُّهَّاد . قيل : إنه كان فيه دُعابة . توفى سنة ١٢٦ هـ . تهذيب التهذيب ٢٨٦/٣

(٤) الطّرفة : كل شىء مستحدث عجيب . والمراد أنهم كانوا يحضرون إليه مالذ وطاب .

(٥) السرمد : الدائم الذى لاينقطع . والليل عنده مرتبط بالأكل .

قال : صَرِيعُ الفَالُوذَج[1] ! ، كنا فى دار رجل قضى بين الناس فى الجماعة ، وحكم بينهم فى الفُرقة[2] ؛ دعانا الوليد بن حربِ بن الحارس بن أبى موسى الأشعرى إلى وليمة ، فأتانا بخوان كجَوْبَةٍ من الأرض[3] ، ثم أتانا بخبزٍ رقاق كآذان الفيلة ، ثم أتانا بثريدة ملساء ، ثم أتانا بساكبة كأن ظهرها ظهر طير قيراطىّ ، ثم أُتينا بفالوذجْ يقرأ نقش الدرهم من تحته ، فوضع على رأس حب ، فنحن على لذة من هذا ، وعلى يقين من ذاك !

فقال له مسعر (وكان يكنى أبا سلمة) : ياأبا عبد الله !

أراك طفيليا !

فقال : ياأبا سلمة !

كانوا كلهم طفيليين ، ولكنهم يتكاتمون !

طفيلى لكنه ظريف !

وقال سعيد بن عثمان :

كان قوم جلوساً على شرابٍ لهم ، فدخل عليهم داخل ، فاستثقلوه ! ؛ فقال بعضهم :

أيها الواغلُ الثقيلُ عَلَيْنَا ... حِينَ لَذّ الحديثُ لِى ولِصَحْبى[4]
خِفَّ عَنَّا فأنت أثقلُ والله ... علينا من فرسخى دير كعب !

قال : فأجابه الرجل فقال :

لست بالبارح العَشِيّةَ والله ... لشَتْمٍ ولا لِشدّةِ ضَرْبِ
أو تَرْوُونَ بالكِبار حِشاشى ... وتعلّون بعدهن بقَعْبِ[5]

---

(١) الفالوذج : أصله : بالوذة وعرب إلى فالوذ ، وفالوذق . تصنع من السكر ، أو العسل ، والنشا ودهن اللوز أو الجوز أو الفسدق .

(٢) أى : رجل ذو شأن فى قومه .

(٣) الجَوْبَةُ : الفُرجَة ، وكل منفتق متسع من الأرض بلا بناء

(٤) الواغل : الذى يدخل على القوم فى شرابهم دون أن يدعى وقد سبق بيانه .

(٥) القعب : قدح ضخم غليظ ، وتُعلّون : تشربون مرة بعد مرة وحشاشى : أحشائى وجوانبى .

قال : فقالوا : اسقوه ؛ فإنه ظريف !

العـارف لايلـوم :

وفى كتاب ابن زيد العلوى لبعضهم :

إنّ مَنْ كَانَ عَارِفاً بالجميلِ ... لايَلُومُ الفَتَى عَلَى التَّطْفِيلِ
أنا فى منزلى وحيدٌ .وأنتم ... قد خَلَوْتُمْ بمَسمَعٍ وشَمُولِ[1]
هذه رقعتى وهذا رسولى ... أنا فى إثرها وإثر الرسولِ

ليـلة من ليـالى الكـوفة :

قال محمد الغفارى :

خرج «**حكم الوادى**» المغنى من الوادى مغاضباً لأبيه حتى ورد المدينة ، فصحب قوما من الحمالين إلى الكوفة ، يعاونهم ، ويركب معهم العُقْبَةَ[2] حتى دخل الكوفة .

فسأل من أسرى مَن بالكوفة ممن يشرب النبيذ ، وأسراه[3] أصحاباً ؟

فقيل : فلان التاجر البزاز ، وله ندماء من البزازين[4] .

وكان التجار يصيرون فى منزل كل واحدٍ يوما ، فإذا كان يوم الجمعة صاروا إلى منزله ، فخرج فجلس فى صفهم ، وكل واحد منهم يظن أنه جاء مع بعضهم ! ؛ يتحدثون ويتحدث معهم ، حتى إذا انصرفوا ، وصاروا إلى منزل الرجل ، وهو معهم ؛ فلما أخذوا مجالسهم ، جاءت جارية ، فأخذت أرديتهم[5] ، وطوتها ، وأتت بالطعام ، ثم أتوا بالنبيذ ، فشربوا ، وكلهم يظن بالوادى ذلك الظن ، حتى إذا طابت

---

(١) ساق فى هذه الأبيات مبررات التطفيل فهم قد انفردوا دونه بسماع وشرب بينما هو وحيد بمنزله ألا يكون ذلك داعيا له إلى مشاركتهم ؟! . والشَّمول : الخمر .

(٢) العُقْبة : النّوبة : أى يتعاقبون ركوب الدواب واحدا بعد آخر .

(٣) أسرى : أشرف

(٤) البزاز : بائع البزّ ، نوع من الثياب ، والبِزَازة : حرفة البزاز .

(٥) جمع رداء : وهو مايلبس فوق الثياب كالجبة والعباءة ، والثوب يستر الجزء الأعلى والوشاح .

أنفسهم ، قام الوادى إلى المتوضّأ[1] ، فأقبل بعضهم على بعض فقالوا :

مع مَنْ جاء هذا ؟

فكلهم يقول : والله ماأعرفه !!

فقالوا : طفيلى ! ؛ فقال صاحب المنزل :

فلا تكلموه بشيء ؛ فإنه سِرِىّ هَنِىّ عاقل[2] ! وسمع الكلام !؟

فلما خرج حيّا القوم ، ثم قال لصاحب البيت : هل عندكم دُفٌّ مربع ؟

قال : لا ، ولكن نطلبه لك .

فأرسل فاشترى من السوق ، وعلموا أنه مُغنٍّ ؛ فلما وضع الدف فى يده وحركه كاد أن يتكلم فكاد القوم أن يطيروا من الطرب من عجيب نقره على الدّف ، ثم غنى بحلق لم يسمعوا بمثله ، فلما سكت ، قالوا :

بأبى أنت ياسيدنا ماكان ينبغى أن تكون إلا هكذا[3] !!

فقال : قد سمعت كلامكم ، وما ذكرتم من تطفيلى !! وأى شيء كان عليكم من رجل دخل فيما بين أضْعَافكم[4] ؟

فقالوا : ماكان من ذلك شيء!!

فأقام معهم يوما ، ثم قالوا له : أين تريد ؟

قال : باب أمير المؤمنين !

قالوا : وكم أَمَلُك منه ؟ . قال : ألف دينار !

قال : فإنا نعطى الله عهدا إن رآك أمير المؤمنين فى سفرك هذا ، ولاعاينك ، ولا عاينت بلاداً سوى الكوفة ، وهى علينا !

(١) مكان الوضوء ، أو الوضوء نفسه ، اسم مكان أو مصدر ميمى . ومثلهما اسم الزمان واسم المفعول وكلها صيغة واحدة . على وزن المضارع بابدال أوله ميما مضمومة وفتح ما قبل الآخر . والسياق يحدد المراد . (أى دورة المياه) .

(٢) لاتبدو عليه أمارات التطفيل ، ويظهر عليه أمارات الشرف . والعقل والاتزان !

(٣) إنك أهل لهذا .

(٤) أى فيما بينكم ، ومنه أضعاف الكتاب أى حواشيه وما بين سطوره . وهو هنا يعاتبهم على مارموه به من التطفيل عندما خرج الى المتوضأ .

فأخرجوا فيما بينهم الألف دينار ، وأخرجوا كسوة له ولعياله ولأبيه ، وهدايا من العراق ، وأقام عندهم حتى اشتاق إلى أهله ، فحملوه ورجع إلى أهله !

المأمون ، والزنادقة ، وإبراهيم بن المهدى يحكي قصة تطفيله:

حدّث الحسين بن عبد الرحمن الحلبى عن أبيه قال :

أمر المأمون أن يُحْمَلَ إليه عشرة من الزنادقة ، سُمّوا له من أهل البصرة[1] ، فجُمعُوا ، وأبصرهم طُفَيْلى ، فقال : ما اجتمع هؤلاء إلا لصنيع ! ؛ فانسَلّ ؛ فدخل وسطهم ، ومضى بهم الموكّلُون[2] حتى انتهوا بهم إلى زَوْرَقٍ قد أعِدّ لهم ، فدخلوا الزورق ، فقال الطفيلى :

هى نزهة ! ، فدخل معهم الزورق ، فلم يك بأسرع بأن قُيّدَ القَوْمُ ، وقُيِّد معهم الطفيلى[3] .

فقال الطفيلى، بلغ بى تطفيلى إلى القيود[4]! ثم سير بهم إلى بغداد، فدخلوا على المأمون ، فجعل يدعو بأسمائهم رجلا رجلا ؛ فيأمر بضرب رقابهم حتى وصل إلى الطُّفَيْلىّ ، وقد استوفى عِدّةَ القوم[5] .

فقال للموكلين بهم : ما هذا ؟

فقالوا : والله ما ندرى ؛ غير أنا وجدناه مع القوم ، فجئنا به !

فقال المأمون : ما قصتك ؛ ويْلَك ؟!

فقال : يا أمير المؤمنين ! امرأته طالق إن كان يعرف من أقوالهم شيئا ، ولا يعرف إلا الله ، ومحمداً النبى ﷺ ، وإنما أنا رجل رأيتهم مجتمعين ، فظننت صنيعاً[6] يغدون إليه ! فضحك المأمون ، وقال : يؤدّب .

---

(١) ذكروا للمأمون بأسمائهم والزنادقة : جمع زِنْديق وهو الذى يؤمن بالزندقة وهى القول بأزلية العالم وأطلق على كل شاكّ ، أو ضال ، أو مُلْحِد .

(٢) المسئولون عن إحضارهم من الحراس ، والذين ، وُكِل إليهم أمر إحضارهم .

(٣) وضعوا جميعا فى القيود ؛ ليساقوا إلى المأمون ، ولكيلا يهربوا .

(٤) أى أوصلنى إلى ما أنا فيه ، وصدق فيه المثل : كالباحث عن حَتْفِه بظِلْفه !

(٥) أى تم تنفيذ حكم الإعدام فى العشرة المطلوبين !

(٦) الصنيع : كل ما صنع من خير أو إحسان ، والفعل الحسن ، والطعام يُدْعى إليه !

وكان إبراهيم بن المهدى قائما على رأس المأمون ، فقال : ياأمير المؤمنين ! هَبْ لى أدبَه[1] ، أحدثك بحديث عجيب عن نفسى ، فقال : قل ياإبراهيم! ، قال :

ياأميرَ المؤمنين، خرجت من عندك يوما فى سكك بغداد ، فشممت ياأمير المؤمنين من روائح أبازير[2] قدور قد فاح طيبها ، فتاقت نفسى إليها ، وإلى طيب ريحها ، فوقفت على خياط ، وقلت له :

لمن هذه الدار ؟

فقال : لرجل من التجار من البزازين[3]

قلت : ما اسمه ؟

قال : فلانُ ابن فلان ! ، فنظرت إلى الدار فإذا بشباك فيها مِطَلٌّ ، فنظرت إلى كفّ قد خرجت من الشباك قابضة على عضد ومعصم ، فشغلنى ياأمير المؤمنين حسن الكف والمعصم عن رائحة القدور وبقيت باهتا ساعة ثم أدركنى ذهنى فقلت للخياط :

أهو ممّن يشرب النبيذ ؟

قال : نعم ، وأحسب أن عنده اليوم دعوة ، وليس ينادم إلا تجاراً مثله مستورين !

فإنى لكذلك إذا أقبل رجلان نبيلان راكبان من رأس الدرب ؛ فقال الخياط : هؤلاء منادموه[4] !

فقلت : ما اسماهما ؟ وما كُنَاهما[5] ؟

قال : فلان وفلان .

فحركت دابتى وداخلتهما ، وقلت : جُعِلت فِداكما ، قد استبطأكما أبو فلان ـ أعزه الله ـ ! وسايرتهما حتى بلغا الباب ، فأدخلانى ، وقدّمانى ، فدخلنا ، فلما رآنى

(١) أى اترك لى أمر تأديبه . وإبراهيم بن المهدى عم المأمون وأخو هارون الرشيد أديب وشاعر ولد ونشأ فى بغداد ، وبويع بالخلافة فى غياب المأمون بخراسان ، وعفا عنه المأمون ، تعاطى الغناء ، والضرب ، والملاهى ، وحسن المنادمة .

(٢) الأبازير : رائحة التوابل مع الطعام حين يطبخ .

(٣) بائعى الثياب .

(٤) من يجالسونه على الشراب والسّمر !

(٥) الاسم ما سمى به الإنسان عند ولادته ، والكنية ما ينادى به الإنسان بعد ذلك مبدوءاً بأب أو أم .

صاحب المنزل لم يشك أنى منهما بسبيل، أو قادم قدمت عليهما من موضع فرحّبَ بي وأجلسنى فى أفضل المواضع ، فجيء بالمائدة ، وعليها خبز لطيف ، وأتينا بتلك الألوان ، فكان طعامها أطيب من ريحها .

فقلت فى نفسى : هذه الألوان قد أكلتها ، وبقى الكف والمعصم ، كيف أصل إلى صاحبتها ؟!

ثم رفع الطعام ، وجيء بالصهباء[1] ، ثم صرنا إلى منزل المنادمة ، فإذا بشكل منزل ياأمير المؤمنين عظيم ، وجعل صاحب المنزل يلاطفنى ، ويُقبل علىّ بالحديث وهم لا يَشُكّون أن ذلك منه ليس إلا عن معرفة متقدمة ! وإنما ذلك الفعل كان ظنًّا منه أنى منهما بسبيل[2]

حتى إذا شربنا أقداحاً خرجت علينا جارية ياأمير المؤمنين كأنها غصن بَانٍ تثنى ، فأقبلت وسلّمت غير خَجِلة ، وثنت لها وسادة ، فجلست عليها ، وأتى بعود فوضع فى حجرها ، فجسته فاستبنت فى جسها حِذْقها ثم اندفعت تغنّى :

تَوَهّمَهما طرفى فأصبحَ خدُّها ... وفيه مكانَ الوهْمِ من نظرى أثر
وصافحَها كَفّى فآلمَ كفّها ... فمِنْ مَسِّ كفّى فى أناملها عقر[3]

فهَيّجت ـ ياأميرَ المؤمنين ـ بلابلى وطربت بحسن شِعْرها وحذقِها ثم اندفعت تغنى :

أشرتُ إليها : هل عرفتِ مودتى ؟! ... فردّت ـ بطرف العين ـ إنى على العَهْد
فحِدْت عن الإظهار ـ عمدا ـ بسرها ... وحادت عن الإظهار ـ أيضا ـ على عَمْدِ

فصحت ـ ياأمير المؤمنين ـ وجاءنى من الطرب مالا أملك نفسى[4] ! ، ثم اندفَعت

---

(١) الصهباء : الخمر .

(٢) أى أمُتّ إليهما بصلة أو قرابة .

(٣) توَهّمَ : تمثل وتخيل ، وتوسّم وتفرس وهو المراد . والعَقْر : أثر كالحَزّ . وهى ممن قال فى مثلها شاعر :

خطرات النسيم تجرح خديه ... ولمس الحرير يُدمى بنانه

(٤) وهكذا يفعل الغناء والشرب ، ومن أجل هذا حرمهما الإسلام وقد كان لهما أثرهما فى زوال كثير من الممالك .

فغَنّتْ الثالث[1] :

أليس عجيباً أنّ بَيْتاً يضُمّنى وإياكَ لانحْلو ولاتَتكلّمُ ؟!
سِوَى أعينٍ تشكو الهوى بجفونها وتقطيع أكبادٍ على النار تضرم !
إثارةُ أفواهٍ ، وغمزُ حواجبٍ وتكسير أجفانٍ وكف يُسَلّم

فحسدتها ياأميرَ المؤمنين على حِذقها ، وإصابتها معنى الشعر ، وأنها لم تخرج من الفن الذى ابتدأت فيه !

فقلت : بقى عليك ياجارية !!

فضربت بعودها الأرض ، وقالت :

متى كنتم تحضرون مجالسكم البغضاء ؟! فندمت على ماكان منى ، ورأيت القوم كأنهم قد تغيروا علىّ ! ، فقلت : أليس هنا عود ؟

قالوا : بلى ، والله ياسيدنا !

وأُتيتُ بعود ، فأصلحت من شأنه ماأردت ثم اندفعت أغنّى :

ماللْمنازلِ لايُجِبْن حزينَا أَصُمِمْن ، أم قَدَمَ المدى فبَلينا ؟!
راحوا العشيةَ روحةً منكورةً إن مِتْن متْنَا أو حَيِينَ حيينا

فما أتممته حتى قامت الجارية ، فأكبت على رجلى فقبلتها وهى تقول : المعذرةَ ياسيدى !

والله ماسمعت من يغنى هذا الصوت مثلك أحد !

وقام مولاها ، وجميع من كان حاضراً ، فصنعوا كصنيعها ، وطرب القوم ـ والله ـ واستحثوا الشراب ، فشربوا بالكاسات والطاسات ، ثم اندفعت أغنّى :

أبى اللهُ أن تَمْشِي ولاتذكرينَنِي وقد سفَحَتْ عيناىَ من ذِكرِك الدَّما
فرُدّى مُصَابَ القلْب أنتِ قَتَلْتِهِ ولاتتركيه ذاهلَ العقلِ مُعْرَمَا

---

(١) ذكر صاحب الأغانى أن هناك مائة صوت مختارة ، وروى عن إسحاق بن إبراهيم الموصلى أن أباه أخبره أن الرشيد ـ رحمة الله عليه ـ أمر المغنين، وهم يومئذ متوافرون أن يختاروا ثلاثة أصوات من جميع الغناء ، فأجمعوا على ثلاثة أصوات لاتبقى نغمة فى الغناء إلا وهى فيها .

إلى الله أشكو بُخْلَهَا وَسماحتى ... لها عَسَلٌ منى ، وتبذل علقمَا
إلى الله أشكو أنها أجنبية ... وأنى لها بالوُدّ ـ ما عشتُ ـ مُكرما !

فجاء مِنْ طرب القوم شيء حسبت أن يخرجوا من عقولهم ! فأمسكت ساعة حتى هدءوا مما كانوا فيه من الطرب ، ثم اندفعوا فى الشرب ، واندفعت أتغنى بالصوت الثالث :

هذا مُحِبُّك مَطْوِيٌّ على كَمَدِه ... حَرّى مدامِعُه تجرى على جَسدِه
له يدٌ تسأل الرحمنَ راحتُه ... مما جَنَى ويدٌ أخرى على كَبِدِه

فجعلت الجاريةُ تصيح ، وتقول :

هذا الغناء ـ والله ـ يا سيّدى ، لا ماكنّا فيه ! وسكر القوم ، وخرجوا من عقولهم ، وكان صاحب المنزل جيد الشرب ، حسن المعرفة ؛ فأمر غلمانه مع غلمانهم بحفظهم ، وصرفهم إلى منازلهم ، وخلوت معهم ، فلما شربنا أقداحا قال :

يا هذا ذهب ما مضى من أيامى ضياعاً إذْ كنت لا أعرفك ، فمن أنت يا مولاى ؟ ولم يزل يُلِحّ حتى أخبرتُه الخبر ! فقام وقبل رأسى وقال :

يا سيدى ! أنا أعجب ألا يكون هذا الأدب إلا لمثلك ! وإذا أنا مع الخلافة وأنا لا أشعر ، ثم سألنى عن قصتى ، فأخبرته خبر الطعام ، وخبر الكف والمعصم !

وقلت : أما الطعام ، فقد نلت منه حاجتى !

فقال : والكف والمعصم ؟!

قلت : لا .

قال : يا فلانة ! (لجارية له) قولى لفلانة تنزل ، ثم لم يَزَل يُنْزِلُ جواريه واحدة بعد أخرى ، وأنظر إلى كفها ومعصمها وأقول : ليست هى ! ، حتى قال :

والله ما بقى غير زوجتى وأختى ! ، ووالله لأنزلنهما إليك ، فعجبت من كرمه ، وسَعَةِ صدره ! ؛ فقلت : جُعِلْت فداك ! ؛ أبدأ بالأخت قبل الزوجة ؛ فعساها هى ! ؛ فبرزت ، فلما رأيت كفها ، ومعصمها قلت :

هذه هى ! ؛ فأمر غِلمانه ، فمضوا إلى عشرة مشايخ من أَجلّة جيرانه فى ذلك

الوقت ، وأُحضِروا ، ثم أمر ببدرتين[1] فيهما عشرون ألف درهم ، فقال للمشايخ :

هذه أختى فلانة ! أشهدكم أنى قد زوجتها من : «**سيدى إبراهيم بن المهدى**» وأمهرتها عنه عشرة آلاف درهم ، فرضيت النكاح ، فدفع إليها البدرة ، وفرق الأخرى على المشايخ ، وقال لهم : انصرفوا .

ثم قال : ياسيدى ! أمهد لك بعض البيوت ؛ فتنام مع أهلك ، فأحشمنى مارأيت من كرمه ، فقلت :

بل أحضر عمارة[2] ، وأحضرها إلى منزلى ، فوحقك ياأمير المؤمنين لقد حمل إلىّ من الجهاز ماضاقت به بعض بيوتنا مع سعتها ، فأولدتها هذا الغلام القائم على رأس أمير المؤمنين ! ؛ فعجب المأمون من كرم ذلك الرجل ، وسعة صدره ، وقال :

لله أبوه ! ، ماسمعت مثله قط ! ، ثم أطلق الطفيلى ، وأجازه بجائزة سنية ، وأمر إبراهيم بإحضار الرجل فكان من خواص المأمون وأهل محبته .

إسحق بن إبراهيم يتطفل :

وقال إسحق بن إبراهيم الموصلى حدثنى أبى قال : غدوت وأنا أضجر من ملازمة دار الخلافة ، والخدمة فيها ، فخرجت وركبت بكرة ، وعزمت على أن أستريح

وقلت لغلمانى : إن جاء رسول الخليفة أو غيره ، فعرفوه أننى بكرت فى مهمة لى ، وأنكم لاتعرفون أين توجهت !

قال : فمضيت ، فطفت وقد حمى النهار ، فوقفت فى شارع المحرم فى فناء ثخين الظل ، وجناح رحب على الطريق لأستريح ، فلم ألبث أن جاء خادم يقود حماراً فارهاً عليه جارية راكبة تحتها منديل دبيقى ، وعليها من اللباس الفاخر ، مالا غاية وراءه ، ورأيت لها قواما حسنا ، وطرفا فاترا ، وشمائل ظريفة ، فحدثت نفسى أنها مغنية ، فدخلت الدار التى كنت واقفاً عليها ، وعلقها قلبى فى الحال علوقاً شديدا لم أستطع معه البراح ، فلم ألبث إلا يسيراً حتى أقبل شابان جميلان لهما هيئة تدل على

---

(١) البدْرة : كيس من النقود يقدم فى العطايا ، ويختلف باختلاف العهود .

(٢) عمارة : هودجاً لتقلها .

قدرهما ، وهما راكبان ، فاستأذنا ، فآذن لهما ؛ فحملنى ما قد حصل فى قلبى من حب الجارية ، وإيثارى علم حالها ، والتوصل إليها على أن نزلت معها . ودخلت بدخولهما ، فظنا أن صاحب البيت قد دعانى ، وظن صاحب البيت أنى معهما ، فجلسنا ، وأتى بالطعام فأكلنا ، وبالشراب فوضع ، وخرجت جارية وفى يدها عود ، فرأيت جارية حسناء ، وتمكن مافى قلبى منها ، فغنت غناءً صالحاً ، وقمت قومة للبول ، فقال صاحب المنزل لأحد الرجلين :

هل تعرفانه ؟ فأخبراه أنهما لا يعرفانى ! فقال : هذا طفيلى ، لكنه ظريف ! فأجْمِلُوا عشرته ، وجئت فجلست ، وغنت الجارية من لحن لى :

ذكرتك إن مرت بنا شادن ... أمام المطايا تَرُنُّحُ
من المؤلفات الرّمْل أدمى حَرُّه ... شعاع الضحى فى متنها يتوضح

فأدته أداء صالحا ثم غنت أصواتا فيها من صنعتى :

الطُلول الدوارسُ ... كان فيها الأوانسُ
أوحشت بعد أهلها ... فهى قفر بسابس

فكان أمرها فيه أصلح من الأول .

ثم غنت أصواتاً من الحديث والقديم، وغنت أضعافها من صنعتى :

قل لمن عاد عاتبا ... ونأى عنك جانبا
قد بلغت الذى ... أردت وقد كنت لاغبا
واعترفنا بما ادعيت ... وإن كنت كاذبا

فكان أصلح ما غنته ، فاستعدته لأصحبه ، فأقبل علىّ رجل من الرجلين فقال :

ما رأيت طفيليا أحنق وجها منك ! لم ترض بالتطفيل ! حتى اقترحت !

عجيب ! طفيلى ويقترح !!

فأطرقت ، ولم أجبه ! وجعل صاحبه ، يكفّه عنى ، فلا يكفّ .

ثم قاموا للصلاة ، فتأخرت ، وأخذت عود الجارية ، فشددت طبقته ، وأصلحته ! إصلاحاً محكماً ، وعدت إلى موضعى ، وصليت ، وعادوا ، فأخذ ذلك

الرجل فى اللوم علىَّ ، وأنا صامت ، ثم أخذت الجاريةُ العودَ ، وجسّته ، فانكرت حاله ، وقالت :

من مَسّ عودى ؟!

فقالوا : ما مَسّه أحد منا !

فقالت : بلى ــ والله ــ قد مسَّه حاذق ، تقدم وشدّ طبقته وأصلحه إصلاح متمكن من صناعته !

فقلت لها : أنا أصلحته ، فقالت : بالله عليك ، خذه واضرب به ، فأخذته وضربت طريقا عجيبا ، صنعت فيه نَقَراتٍ مُحَرِّكة ؛ فما أحدٌ منهم إلا وثب وجلس بين يدىّ ، وقالوا :

بالله يا سيدى ! أتغنى ؟!

قلت : نعم ؟ وأعرفكم نفسى أيضا ؛ أنا إسحق بن إبراهيم الموصلى ، ووالله إنى لأُتيهُ على الخليفة وأنتم تشتمونني اليوم لأجل مجيىء معكم بسبب هذه الجارية !!

ووالله لانطقت بحرف ، ولا جلست معكم حتى تخرجوا هذا المعربد الهنب[1] الغث !

ونهضت لأخرج ، فعلقوا بى ، فلم أعد ، ولحقتنى الجارية فعلقت بى ، فلنت لها ، وقلت .

لاأجلس حتى تخرجوا هذا المعربد البغيض !

فقال له صاحبه :

منْ هذا وشبهه حذرت عليك ، فأخذ يعتذر !

فقلت : أجْلس ، ولكن والله لاأنطق بحرف وهو حاضر ، فأخذوا بيده فأخرجوه ، فغنيت الأصوات التى غنتها الجارية من صنعتى ، فطرب صاحب البيت طربا شديدا ، وقال :

هل لك فى أمرٍ أعرضه عليك ؟

---

(١) الهنب : هنب الرجل هنبا : بله وحمق . والغث : الردىء

قلت : ما هو ؟

قال : تقيم عندى شهرا ، والجارية ، والحمار لك مع ما عليه من حِلْية للجارية ، ومن كسوة !

قلت : أفعل ، وأقمت عنده ثلاثين يوما ، فسلم إلىّ الجارية والحِمار ، والخادم ، فجئت بذلك إلى منزلى وهم فى أقبح صورة لفقدى[1] !

وركبت إلى المأمون من وقتى ، فلما رآنى قال لى :

ياإسحق ! ويحك أين كنت ؟

فأخبرته بخبرى فقال :

علىَّ بالرجل الساعة ! ، فدللتهم عليه ، فأحضروه ، فسأله المأمون عن القصة ، فأخبره ، فقال :

أنت رجل ذو بِزَّة[2] ، وسبيلك أن تُعاون عليها ، وأمر له بمائة ألف درهم ، وقال له :

لا تعاشر ذلك المعربد ! ، فقال :

معاذَ الله ياأمير المؤمنين !

وأمر لى بخمسين ألف درهم وقال :

أحْضر لى الجارية ، فأحضرتُها له فأمرها بالغناء فغنت ، فَأعجبته ، فقال لى :

قد جعلت عليها « نوْبة » فى كل ثلاثاء تغنينى من وراء الستارة مع الجوارى ، وأمر لها بخمسين ألف درهم فربحت ــ والله ــ بتلك الركبة ، وارتحت .

---

(١) حيث غاب عن أهله تلك الفترة ، لا يعلم أحد أين اتجه .

(٢) بِزّة : هيئة ووجاهة .

مخارق المغنى ممن طفّلوا :

وقال محمد الطوسى : حدثنى أبى قال :

سمعت مخارقاً المغنى يقول : طفّلت تطفيلة قامت على أمير المؤمنين المعتصم[1] بمائة ألف درهم !

فقيل له : وكيف كان ذلك ؟ قال :

شربت مع «**المعتصم**» ليلة إلى الصبح ، فلما أصبحنا قلت له :

ياسيدى ! إن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لى فأخرج فأقيم فى «**الرُّصافة**»[2] حتى وقت انتباه أمير المؤمنين !

قال : نعم .

وأمر البوابين فتركونى ، فجعلت أمشى فى الرصافة ، فبينما أنا أمشى إذ نظرت إلىّ جارية كأن الشمس تطلع من وجهها ، ومعها زِنبيل[3] بشائر ، فوقفت على صاحب فاكهة فاشترت منه سفرجلة بدرهم ، ورمانة بدرهم . وكمثراة بدرهم ، ومضت فتبعتها ، فالتفتت فرأتنى خلفها أتبعها ، فقالت لى :

يابن الفاعلة إلى أين ؟!

قلت : خلفك ياسيدتى !

قالت : ارجع يابن الفاعلة لاينظرك أحد ؛ فيقتلك !

ثم التفتت بعد ذلك فنظرت إلىّ وشتمتنى ضعف ماشتمتنى فى المرة الأولى !

ثم جاءت إلى باب كبير ، فدخلت فيه ، وجلست بحذاء الباب ، وذهب عقلى ، ونزلت الشمس ، وكان يومها حارّا ، فلم ألبث أن جاء فتيان كأنهما صورتان على حمارين مصريين ، فاستأذنا ، فأذن لهما ودخلا ، فدخلت معهما ، فظن صاحب

---

(١) المعتصم : هو محمد بن هارون الرشيد الخليفة العباسى ، كان أمياً ، تولى حكم مصر قبل خلافته . استعان بالجنود الأتراك .

(٢) الرصافة بضم الراء المشددة محلة ببغداد كما قال على بن الجهم :

عيون المها بين الرُّصافة والجسر جلبن الهوى من حيث أدرى ولا أدرى !

(٣) الزنبيل : الغرارة ، والكيس . والبشائر : الدفوف ونحوها كما جاء فى قول البهاء زهير .

وما القلب إلا داره ضربت له فيها البشائر

المنزل أنى جئت مع صديقيه ، وهما ظنا أن صاحب المنزل قد دعانى ، وجىء بالطعام ، فأكلوا ، وغسلوا أيدهم ، ثم قال لهم صاحب المنزل : هل لكم فى فلانة ؟! قالوا : إن تفضلت ! ؛ فخرجت تلك الجارية بعينها ، وقدامها وصيفة تحمل عودا لها ، فجلست ، ووضعته فى حجرها ، ثم غنت ، فطربوا ، وشربوا ، فقالوا : لمن هذا يا سيدتنا ؟!

قالت : لسيدى مخارق[1] !

ثم غنت صوتا آخر ، فطربوا ، وشربوا ، وزاد طربهم ، فقالوا : لمن هذا يا سيدتنا ؟ فقالت : لسيدى مخارق !

ثم غنت الثالث فطربوا وشربوا وهى تلاحظنى وتشك فىّ
فقالوا : لمن هذا يا سيدتنا ؟ قالت : لسيدى مخارق !
قال : فلم أصبر ، وقلت : يا جارية ! شُدى يدك ، فشدت أوتارها ، وخرجت عن إيقاعها الذى تقول عليه ، فدعوت بعود وقضيب ، وغنيت الصوت الذى غنت أولا ، فقاموا وقبلوا رأسى .

قال مخارق ـ وكان أحسن الناس صوتا ، وكان يوقع بالقضيب ـ : ثم غنيت الثانى والثالث فجثوا ، وكادت عقولهم تذهب .
فقالوا : من أنت يا سيدنا ؟
قلت : أنا مخارق ، قالوا :
فما سبب مجيئك ؟
قلت : طُفَيْلىّ ـ أصلحكم الله ـ ، وأخبرتهم خبرى ، فقال صاحب البيت لصديقيه .

قد تعلمان أنى قد أعطيت فيها ثلاثين ألف درهم ، فأبيت أن أبيعها ، وأردت الزيادة ، وقد نقصت من ثمنها عشرة آلاف درهم !

---

(١) لمخارق مذهب فى الغناء يخالف مذهب إسحق الموصلى ٥ : ١ الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى .

قال صديقاه : عشرون ألفا !! وملكونى الجارية ، وانتبه المعتصم ، فطلبنى فى منازل أبناء القواد بمجلس القواد ؛ فلم يجدنى ، فتغيظ !

وقعدت عندهم إلى العصر ، وخرجت بها ، فكلما مررت بمكان شتمتنى فيه قلت لها :

يامولاتى ! أعيدى شتمك علىّ ! ، فتأبى ! فأحلف لتعيدنّه ، وأخذت بيدها حتى جئت بها إلى باب أمير المؤمنين ، ودخلت ، ويدى فى يدها ، فلما رآنى «المعتصم» سبنى وشتمنى ، فقلت :

ياأميرَ المؤمنين ؟ ، لا تعجل علىّ ، وحدثته القصة ، فضحك ، وقال :

نكافئه عنك يامخارق !

وأمر لكل واحد منهم بثلاثين ألف درهم ، وأمر لى بعشرة آلاف درهم .